الفراء الكوفي واستدراج المعنى من النحو وعادة العرب في كلامهم

أ .م .د. عادل عباس النصراوي
أ.م.د. عبد الحسن جدوع العبودي
كلية التربية الأساسية – جامعة الكوفة

المقدمة:

اتّبع الأخفش سبيلاً متمماً لما سار عليه أبو عبيدة في استقدام المعنى واستدراجه من النصّوص اللغوية وخاصة القرآن الكريم ، فقد سلك هذان العلمان طريق اللغة المحضة ، وهو واضح عند أبي عبيدة ، وطريق اللغة والنحو عند الأخفش مع ميل منه عن المنهج البصري في النحو باتجاه المنهج الكوفي بعدما ضمّه الكسائي الى مدرسته عندما قرّبه وأغدق عليه وجعله مؤدّباً لأولاده حتى مات ، ممّا حدا بالأخفش – كما علمنا – الى أن يتخذ سبيلاً خالف فيه البصريين مقترباً من لكوفيين ، وربّما كان ذلك منه بعد أن اطّلع على الحركة العلمية المزدهرة في بغداد آنذاك وتأثرّ بالقياس انطلاقاً منهم في ذلك من نظريات المعتزلة وتنشيط العقل وإهمال الرواية والأثر حتى أصبح للأخفش أثراً في الكوفيين ، ومنهم مَنْ عدّهم أستاذاً لهم وواضعاً لأسس المدرسة الكوفية وقواعدها ، وقد انكر بعض المحدثين ذلك[١] .

لكنّ الذي وقع هو أنّ الأخفش يُعَدَّ من أقدم المبادرين الى استعمال النحو العربي وقواعده فضلاً عن دلالة الألفاظ وما تعامل به العرب في لغتهم في استقدام المعاني من النصّ القرآني في كتابه " معاني القرآن " بصيغة النحو البصري ذي النكهة الكوفية إذ تحرّر من القيود المدرسية بعد حضوره مجالس العلم والعلماء وطرق الحوار واستعمال العقل في إنتاج المعنى وتصوّره من النصّ .

أمّا أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء فقد سلك منهجاً نحوياً انحرف فيه كثيراً عن سلوك الأخفش وغيره من علماء النحو واللغة عندما اتخذ من المنهج الذي وضعه أستاذه الكسائي وسار عليه هو ثم طوّره بما يراه اتفاقاً مع الواقع اللغوي الذي يعيشه المجتمع العربي وذلك أن النحو الكوفي وَلِد على أساس التيسير للناس في حفظ قواعدهم وتوسيعها وعدم الانغلاق على القواعد النحوية التي بُنيت على لغة مجموعة من القبائل البدوية القاطنة في قلب الجزيرة العرب ، وإنّما توسّعوا في أخذ اللغة من القبائل الأخرى

التي أبى البصريون الأخذ منها أو التعامل معها ، فكان مسلك الفراء مسلكاً اعتمد هذا الأصل المهم في تقعيده للنحو الكوفي ولم يكن فيه كثير من ضير وذلك أنّ اللغة كائن له القابلية في العيش والتعامل مع المجتمع فهي متطوّرة بتطوره ، فالمتطوّر لابُدّ أن تكون له قواعد فيها من المرونة والاتساع ما يمكنه أن يستوعب كل المتغيرات والتطورات في اللغة ، يقول الشيخ محمد الطنطاوي : (فلا ضير على القائل متى حاكى أيّ استعمال كان ، وما القواعد إلاّ وليدة اللغة فهي ذات السلطان عليها دون العكس)[٢]، أي أنّ اللغة هي التي تقرّر القاعدة لا العكس ، فالقاعدة النحوية يجب أن تُحاكي ما وُضعَ في اللغة فينبغي أن تُقعَّد القواعد وفق متغيرات اللغة .

وربّما يكون القياس أحد الوسائل المهمة في استيعاب ما يطرأ على اللغات أو عندما يُفْقَد الشاهد الذي يَشير الى الحالة التي أظهر الاستعمال الجديد في لغة عامة الناس وخواصهم ، لقد فعّل الكوفيون هذا المبدأ وجعلوه أصلاً مهماً من أصول اللغة وتقعيدها والبناء عليها خلافاً للبصريين الذين جعلوا من السماع الوسيلة الأقوى في ذلك [٣] .

إنّ هذا الخلاف بين البصريين والكوفيين كان في الأصل خلافاً سياسياً ، يقول الشيخ محمد الطنطاوي : (الحق أنّ السياسة هي التي عاضدت الكوفيين وأوجدت منهم رجالاً كوَّنوا مذهباً ناضل المذهب البصري ، ولولاه لما ثبتوا أمام البصريين في مساجلاتهم ولما قهروهم في مواطن كثيرة ظلماً وعدواناً)[٤]، ثم تحوّل هذا الخلاف الى خلافٍ علميّ ، فحاول الكوفيون أن لا تتماهى شخصيتهم في البصريين ، فدعاهم هذا الى تنظيم نحو خاصٍ بهم لا ينتحون فيه منحى البصريين وكان لديهم من الوسائل ما يهيّأ لهم ذلك ونيل ما يأملون فخالفوا البصريين وأخذوا من الأعراب الثاوين في الكوفة وكان منهم من بني أسد وأهل اليمن وهم ممّن لا يُحتَجُّ بلغتهم عند البصريين لمخالطتهم الأعاجم ، ولّما كان المربد في البصرة جعلوا لهم سوق " الكناسة " يرتفقون منها [٥] .

وقد قعَدَّ الفراء قواعدهم معتمداً في ذلك على ما أخذه من أستاذه الكسائي وما تعلّمه من غيره من النحاة الذين عاصروه وربّما كان كتاب سيبويه رفيقه غير أنّه لم يُفصح عن ذلك ليضع أسس النحو الكوفي وقواعده وقد أملى كل ذلك في كتابه " معاني القرآن " الذي زخر بالقواعد النحوية المخالفة للنحو البصري ومستعيناً على تثبيت تلك القواعد

وإسنادها بالشعر العربي والقراءات القرآنية فضلاً عما تكلّمت به العرب في كلامها من غير الشعر .

حكمّ الفراء في استقدام المعاني القرآنية من آياتها وسورها النحوَ العربيَ ذا النزعة الكوفية فضلاً عن القواعد المشتركة بين المدرستين وكان إذا أراد استنباط المعنى واستقدامه وتقريبه من النصّ القرآني شغّل آلية النحو ومعانيه مشفوعاً بالشعر العربي أو القراءات القرآنية ، وربّما يكون الشعر والقراءات القرآنية وسيلة لاتساع الدلالة ، وذلك قد تكون هذه الشواهد على غير لغة القرآن الكريم فيفيد منها في إضافة معنى جديد غير المعنى في ظاهر الآية ويستعين في ذلك بما أوتي من قدرة على التحليل والتقدير الذي تعلّمه من خلال الحوارات والمناظرات العلمية التي كانت سائدة آنذاك في مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء ، وكان للفراء منها الحظ الأوفر إذ كان مؤدِّباً لأولاد الخلفاء ، فكان قريباً من هذه العوالم الزاخرة بالمعرفة .

من هذا نستنتج أنَّ الفراء ذا عقلٍ منفتح على ثقافة عصره ولم يكن يقبل إلاّ بما يقبله العقل السليم ، وقد وُصِفَ بأنّه معتزليٌّ[٦] في تفكيره ورؤاه العلمية ، وللتدليل على اعتزاله نورد ما يأتي :.

١- كونه كوفياً وسكن شطراً طويلاً من حياته في بغداد في زمن غلب على الحكام آنذاك في هذين المصرين القول بالاعتزال حتى كان أهل الكوفة يُسمَّوْن بأهل الرأي .

٢- قربه من المأمون العباسي الذي كان معتزلياً ولم يقرّب غيره الى البلاط العباسي وتعليم أبنائه وتأديبهم .

٣- اهتمامه بالقياس والتأويل والاتساع في المعنى من خلال التقدير وتعدّد الاحتمالات النحوية ، وهذا ما كان يراه المعتزلة ، إذ إنّهم حاولوا التوسّع في إدراك معاني النصّ القرآني خدمة لتثبيت عقائدهم فربّما يكون ظاهرُ النصّ قاصراً عن إدراك المعنى ، فيتوجّه كالمعتزلة الى التأويل أو القياس أو غيره من الطرق لديهم لاستقدام المعنى من القرآن الكريم بما يخدم النصّ ويوسّع دلالته لأجل تثبيت العقيدة وتحصينها ، وإنّما سلكوا التوسّع في الدلالة لأجل غلق أبواب الشبهات التي تعمل على تضيق المعنى أو وقوع اللبس .

٤- إنّ انحياز الأخفش نحو العقل وابتعاده عن الرواية والأثر وخروجه عن قيود المدرسة البصرية يُظهر مقدار تأثير الكسائي وتلامذته فيه وقد أفصح عن آرائه الاعتزالية في كتابه (معاني القرآن) وهذا يدل على أنّ الفرّاء كان معتزلياً هو الآخر ولو كان خلاف ذلك لخرج عن تلك التوجيهات ولضعُف تأثيره على الأخفش وغيره ممّن تأثّر بالاعتزال .

٥- إنّ بناء الفراء للقواعد النحوية على أساس الواقع اللغوي الذي كان يعيشه لدليل على تقبّله للجديد وعدم جموده على فكرة معيّنة وكان لا يلزمه الوقوف عند حالة واحدة بل كان يبحث عمّا يطوّرها ، وهذا المسلك في التفكير يوحي بكثير من المرونة العقلية المتحرّرة من قيود الرواية والخبر، فدّل بذلك على احترامه لعقله وتفكيره ولم يَعُد عنده العقل مهمَّشاً أو مقَيّداً بالتراث الجامد على الأثر والرواية .

٦- استعانته بما يقوله العرب أو ما جرى عندهم من الكلام في القضية التي يبحثها ورفْضُه لما كان خلاف المتعارف عند العرب في كلامهم ، وهذا منهج يذهب إليه المعتزلة إذ يكمن في طيات هذا الكلام على أنّ اللغة عنده اصطلاح تعارف عليه العرب وثبّتوه في لغتهم ، في حين يذهب غير المعتزلة الى أنَ اللغة توقيف وإلهام ،

ولعل من مصاديق هذا القول ما يراه في قوله سبحانه (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ)[٧] حيث يقول : (فكان " عرضهم " على مذهب شخوص العالمين وسائر العالم ، ولو قُصِدَ قصْدَ الأسماء بلا شخوص جاز فيه " عرضهن " و " عرضها " وهي في حرف عبد الله" ثم عرضهنّ " وفي حرف أُبي " ثم عرضها " جاز أن تكون للأسماء دون الشخوص وللشخوص دون الاسماء)[٨]، وهذا يدلّ على أنّ الله تعالى قد ألهم آدم اللغات ثم عرض المخلوقات جميعاً على الملائكة ليضع لكلّ منها اسماً خاصّاً به ، وهذا تواضع منه ، أي أنّ الله تعالى جعل لآدم (عليه السلام) الخيار في وضع الأسماء للمسميات وهذا مذهب في التواضع ، وذهب ابن جني إلى هذا الرأي عندما أوّل الآية الكريمة بهذا الاتجاه إذ يقول : (وذلك أنّه يجوز أن يكون تأويله : أقدر آدم على أنْ واضَعَ عليها)[٩] وهذا التوجه في الوضع قد قال به أبو عليّ الفارسي وأبو الحسن الأخفش على أنّه لم يمنع قول من قال : إنّها تواضع منه[١٠] ، وهذا المذهب في

التواضع مما يراه المعتزلة ، وقد عرفنا من قبل ذهاب الأخفش الى القول بالاعتزال ، فوافق الفراء بذلك مَنْ قال بالتواضع في اللغة إيماناً منه بما يقوله المعتزلة .

لقد أسبغ هذا التوجه الفكري لدى الفراء الى ضرورة استعمال وسائل فعّالة في البحث عن المعنى في النصّ القرآني المبارك فلكونه نحوياً فقد فعّل مذهبه النحوي وطرائق النحو في التفتيش عن المعاني لأنّ النحو يهتم بطريقة تركيب النصّ القرآني من حيث جمله ومفرداته وعباراته بما يُناسب المراد منه فيصوغ العبارات بشكل يفصح عن المعنى بأجلى صوره وأوضحها ، فربما استدرج المعنى من النصّ من خلال تعدّد الأوجه الإعرابية للمفردة القرآنية فيوسّع من الدلالة عندما يُعدّد احتمالاتها بتعدّد أوجهها الإعرابية منها قوله سبحانه : (وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا ...)[١١] قال الفراء : (إن شئت جعلت " فتكونا " جواباً نصباً ، وإن شئت عطفته على أوّلِ الكلام فكان جزماً ، مثل قول امريء القيس :

فقلتُ له صَوِّب ولا تجهدَنَّهُ فَيُدْرِك مِنْ أخرى القطاة فتنزلِقُ

فجزم ، ومعنى الجزم تكرير النهي كقول القائل : لا تذهب ولا تعرض لأحد ، ومعنى الجواب والنصب ، لا تفعل هذا فيُفْعَل بك مجازاةً)[١٢] فعندما تعدّدت أوجه الإعراب تعدّد المعنى واتسع .

ومنه أيضاً قوله سبحانه (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)[١٣] ، إذ يقول الفراء : (فأنّه رُفعَ من وجهين ونُصب من وجهين ، إذا أردت بـ " الكتاب " أن يكون نعتاً لـ " ذلك " كان الهدى في موضع رفع لأنه خبر لـ " ذلك " كأنَك قلت : ذلك هدىً لاشك فيه ، وإن جعلت " لا ريب فيه " خبره رفعت أيضاً " هدىً " تجعله تابعاً لموضع " لا ريب فيه " ، ... وفيه وجه ثالث من الرفع : إن شئت رفعته على الاستئناف لتمام ما قبله ... فأمّا النصب في أحد الوجهين فإن تجعل " الكتاب " خبراً لـ " ذلك " فتنصب " هُدىً " على القطع لأنّ " هدىً " نكرة اتصلت بمعرفة قد تمّ خبرها فنصبتها لأنّ النكرة لا تكون دليلاً على معرفة ، وإن شئت نصبت " هدىً " على القطع من الهاء التي وقعت " فيه " كأنَك قلت : لا شك فيه هادياً)[١٤] .

ومنه أيضاً قوله سبحانه : (قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ)[١٥] قال الفراء : (ففيها وجهان : إن أردت : ذلك قلنا معذرةٌ الى ربكم رُفعت ، وهو الوجه ، وإن أردت : قلنا ما قُلنا معذرةً الى الله ، فهذا وجهُ نصب)[١٦] ، فاحتمل أكثر من وجه أعرابي ، وجعل لكل وجه منهما معنىً دالاً عليه .

ومنه أيضاً قوله سبحانه : (قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى)[١٧] فقد كان يرى الفراء لـ (ما) موضعين من الإعراب فقال : (فموضع " ما " رفع كأنّه قال : يفتيكم فيهن وما يُتلى عليكم ، وأن شئت جعلت " ما " يُفتيكم الله في موضع خفض.. يفتكم الله فيهنّ وما يُتلى عليكم غيرهن)[١٨] ، فاختلاف الإعراب أدّى الى اختلاف المعنى في الآية الكريمة.

وهذا باب واسع عند الفراء استعمله في (معاني القرآن) إذ حاول أن يتلمس كلّ الأوجه الاعرابية المحتملة وإبداء المعنى الكامن في هذا الوجه الإعرابي .

استدرج الفراءُ المعنى أيضاً من خلال تقدير المحذوف في الآي القرآني من نحو قوله سبحانه : (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ)[١٩] وقد حُذف فيها جواب " إذا " قال الفراء (يقول القائل : وأين جواب " إذ " وعلامَ عُطفت ؟ ومثلها في القرآن كثيرٌ بالواو ولا جواب معها ظاهرٌ ؟ والمعنى – والله أعلم – على إضمار " واذكروا إذ أنتم " أو " إذ كنتم ")[٢٠]

ومنه أيضاً قوله سبحانه (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ)[٢١] فتعدّد عند الفراء اللفظ المقدّر وبسببه تعدّد المعنى ، قال : (يُقال : وعلى الذين يُطيقون الصومَ ولا يصومون أن يطعمَ مسكيناً مكان كلّ يوم فطرهُ ، ويُقال : على الذين يُطيقونهُ الفدية يُريد الغذاء)[٢٢] فقدّر المحذوف العائد على الضمير في (يُطيقونه) بما يتفق مع السياق العام للجملة القرآنية فرأى فيها تعدّد التقدير للمحذوف فوسّع دلالة الآية المباركة .

ومنه أيضاً قوله سبحانه (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)[٢٣] إذ ذكر الفراء وجهين وكان أحدهما أحبَّ الى نفسه من الأول ، حيث قال : (يقول : لم يكن ليهلكهم بظلمهم ، يقول : بشركهم " وأهلها مصلحون " يتعاطون الحق فيما بينهم ، هكذا جاء في التفسير – وفيها وجه – وهو أحبُّ إليّ من ذا لأنّ الشرك أعظم الذنوب – والمعنى والله أعلم – لم يكن ليهلكهم بظلمٍ منه وهم مصلحون)[٢٤] .

وربّما استعان الفراء بالقراءات القرآنية لتمثيل المعنى من النصّ القرآني وذلك لاعتداده كباقي الكوفيين بالقراءات القرآنية وكان يعدّها سُنة[٢٥] ، غير أنّه كان يُحكّم عقله فيها ، فهناك من القراءات قد أخذ بها في حين خالف بعضها الآخر وقد يقف عند كثير منها موقفاً صعباً فيحاكمها وعندما يأخذ بها إنّما ينطلق في قبولها أو رفضها نسبة الى موقفها من العربية ، فما وافق منها العربية أخذ بها وإن لم توافقها نبذها ، وربّما ردّ بعضها إذا كانت لا توافق مذهبه النحوي وخاصة إذا كانت توافق المذهب البصري ، وكان الفراء يحاول أن يوفّق بين القراءة القرآنية وكلام العرب ، من ذلك قوله سبحانه : (وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ)[٢٦] قال : (وفي قراءة عبد الله " واللاتي يأتين بالفاحشة " والعرب تقول : أتيتُ أمراً عظيماً وأتيتُ بأمر عظيم ، وتكلمتُ كلاماً قبيحاً ، وبكلام قبيح ، وقال في مريم : " لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً "[٢٧] و " جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً "[٢٨] ولو كان فيه الياء لكان صواباً)[٢٩]. ويفيد من القراءة أيضاً معنىً آخر عندما يوجهها توجيهاً نحوياً قال تعالى : (فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ)[٣٠] قال الفراء : (وفي قراءة عبد الله " فالصوالح قوانت " تصلح فواعل وفاعلات في جمع فاعله ، وقوله : " بِمَا حَفِظَ اللَّهُ "[٣١] القراءة بالرفع ، ومعناه حافظات لعين أزواجهن بما حفظهن اللهُ حين أوصى بهنّ الأزواج وبعضهم يقرأ " بما حفظ اللهَ " فنصبه على أن يجعل الفعل واقعاً ، كأنّك قلت : حافظات للغيب بالذي يحفظَ اللهَ)[٣٢]. وهناك طرق عديدة سلكها الفراء في استقدام المعنى من النصّ الكريم متعمداً فيها المذهب النحوي الذي أقرّه ومستعيناً باللغة ودلالة الألفاظ وتوافقها مع سياقها الذي وردت فيه .

مصادر دراسته في معاني القرآن

لم يختلف الفراء عن باقي العلماء الذين سبقوه في كتب معاني القرآن الكريم في اعتماده على بعض المصادر المهمة وقد تمثّلت في القرآن الكريم إذ كان يستعين في تفسير الآيات القرآنية بآيات أخرى توازيها في المعنى فكأنّه يُظهر معناها اعتماداً على ما ظهر من معنى آية أخرى تساويها وهذا ما كان يسمى بتفسير القرآن بالقرآن .

استعان أيضاً في التفسير بالقراءات القرآنية إذ كانت له مصدراً مهماً في إيضاح المعنى فضلاً عن استعمالها في توجيه مذهبه النحوي إذ كان لها أثرٌ كبير في تقنين بعض من

قواعده النحوية وخاصة أنّ الكوفيين كانوا أهل قراءة فكان منهم من القراء المشهورين الكسائي وزر بن حبيش وعاصم وحفص ، وإنّ كثرة القراء فيهم كان بسبب اتصال علمائهم بالقبائل العربية المجاورة لهم وتأثرهم بهم فصنعوا قراءتهم بما يُناسب ما سمعوا من أولئك الأعراب القاطنين بالقرب منهم.

لكنّ الملفت للنظر هو ما اعتمده من الشعر العربي في إسناد آرائه والمعاني التي استنبطها من النصّ القرآني وقد أحصى أحد الدارسين المحدثين عدد الأبيات التي اتخذها الفراء شواهداً لكتابه قد بلغت (٨٨٩) بيتاً من الشعر العربي وقد نظمها بحسب القافية [٣٣] .

ولا غرابة في ذلك ، لأنّ الكوفة كانت مشهورة برواج الشعر عندها وكان له النصّيب الأوفى في تدوين القواعد النحوية عندهم ، وكان ذلك فيهم من العصر الجاهلي ، ونقل ابن جني عن حماد الرواية الكوفي (قال : أمر النعمان فنُسخت له أشعار العرب في الطُنُوج – قال : وهي الكراريس – ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد قيل له : إنّ تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الأشعار)[٣٤] وهذا يدلّ على اهتمام الكوفيين بالشعر وانتشاره فيهم لذا كان مصدراً مهماً في تثبيت قواعدهم ، وقد رأينا كيف استعمل هذا المعين الكبير في تفسيره ، ثم يستطرد ابن جني في بيان اهتمام الكوفيين بالشعر فيقول : (فمن ثمّ أهل الكوفة أعلمُ بالشعر من أهل البصرة)[٣٥].

نلاحظ من خلال ذلك أنّ الكوفيين جعلوا من الشعر وسيلة مهمة عندهم يتداولونها بينهم في حياتهم العامة والخاصة فكان فيهم رغبة ملحة ومتأصلة منذ حلّ العرب الكوفة ويؤيّد ذلك ما صدر عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بعد حرب الخوارج وأمرهم بالاستعداد لقتال معاوية وتخاذلهم عنه إذ لم يرَ الإمام عليّ (عليه السلام) أبلغ في ذمهم من صفة التشاغل بالشعر[٣٦] ، فقال في خطبة له مشهورة : (إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً عزين تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار ، تربت أيديكم ، وقد نسيتم الحرب واستعدادها وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل)[٣٧]، وفي معركة الجمل كان أصحاب الإمام علي (عليه السلام) من الكوفيين وقد وجدهم في لحظة استراحة لهم يتحاورون في أشعر الشعراء وقد اختلفوا فيه حتى حكم فيهم أمير المؤمنين في مقولته المشهورة (كلّ شعرائكم محسن ،

ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيّهم أسبق الى ذلك ، وكلهم أصاب الذي أراد وأحسن فيه ، وإن يكن أحد فضلهم فذلك الذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر فأنّه كان أصحّهم بادرة وأجودهم نادرة)[٣٨] ، فكانت مقولةً مهمة في وضع قواعد النقد الأدبي ولعلّها كانت أول بادرة في وضع أسس النقد للنصوص الشعرية ، إذ جعل من الحرية الأصل الذي تستند عليه العملية النقدية في الشعر العربي .

ومن إقبال الكوفيين على الشعر واستشهادهم به وشدة إقبالهم عليه أدّى الى وقوع النحل والوضع فيه حتى التبس الأمر على الناسِ وأسند القول الى غير قائلة[٣٩]، وقد أشار المتنبي الى ذلك حين قال : (الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى مَنْ لم يقله ، وذلك بيِّنٌ في دواوينهم)[٤٠] .

لهذا لا نرى غرابة فيما استشهد به الفراء من كثرة الشعر العربي في تفسيره إذ كان الشعر فيهم بضاعة رائجة وثقافة عامة إلاّ أنّ التدقيق فيه ضرورة مهمة لأجل استخلاص الجيد منه وطرح الموضوع كي نبقى في سلامة من الوقوع في الخطأ واللبس .

إذن ، كان الفراء شديد الالتصاق بالواقع اللغوي الكوفي خصوصاً استخدام أدواته ومتابعة المتغيرات فيه وتطور اللغة ودلالات الألفاظ في عمله التفسيري فضلاً عن منح العقل فسحة كبيرة من الحرية عند قراءة النصّ القرآني واستنباط معانيه وأحكامه وحاول الفراء جاداً من خلال ما قدّمنا أن يكون مبتعداً عن التهوّر في استعمالات أدواته اللغوية والعقلية وكذلك انكمش كثيراً في الجمود على ظاهر النصّ بل عمل جاهداً على تثوير النصّ القرآني عندما وسّع من احتمالات الأوجه النحوية لكثير من الألفاظ والعبارات في الآيات القرآنية وهو في ذلك لم يكن متجنّياً على النصّ فيها بل أن طبيعة التركيب للنص القرآني بعباراته وآياته وجمله قد وُضعَ مبنياً على هذه الأسس الآخذة في أغلبها الى الاتساع وبعث قابلية التأويل وتعدّد الاحتمالات المنطقية .

بعد أن عرضتُ لاتجاهات هؤلاء العلماء الكبار الثلاثة تبيّن أنّ هناك عملية تواصل في عملهم فأنّ المتأخر يحاول أن يكمل ما بداه السابق عليه وقد انطبعوا بطابع اللغة في تناول القرآن الكريم تفسيراً وتحليلاً فابتدأ أبو عبيدة في مجازه لغوياً محضاً ، ثم تبعه

الأخفش الأوسط وقد خلط اللغة بالنحو مع ميل عن مذهبه النحوي الى الكوفة ، ثم جاء بعدهم الفراء وقد أخلص للنحو في استدراج معاني القرآن .

إذن ، نراهم قد حلّقوا في سماء اللغة والنحو بين المصرين البصرة والكوفة فلم يقتصروا على مذهب واحد أو منهج معيّن ، بل نراهم قد توسّعوا في مصادر دراستهم بين مشافهة الأعراب القاطنين في قلب الصحراء وممّن سكن قرب المدن وتداخل معهم وبين الشعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام ، فضلاً عن الاستعانة بالقرآن الكريم والقراءات القرآنية المعتبرة لديهم ، ومن ثم نجد فيهم من كان المنطق سبيله في عمله ونرى آخرين قد استعانوا بالواقع اللغوي الشعبي.

هذا التوجه الجامع بين النظام واللانظام ، وبين اللغة المقننة بقيود المنطق واللغة المتداولة عند عامة الناس وأشرافهم وبين اللغة المحضة والنحو الذي انساب من البصرة الى الكوفة ، كلّ ذلك شكّل جهداً كبيراً حاول من خلال هؤلاء العلماء أن يلمّوا بمعاني القرآن الكريم ، فهم لم يقتصروا على طريقة واحدة ولا منهج واحد ولا مأخذ واحدٍ في عملهم بل طرقوا كلّ الأبواب التي يُحتمل أن يُتَلمس منها معنىً معيناً أو دلالةً خافية .

لهذه الأسباب وغيرها عُدّت كتب مجاز القرآن لأبي عبيدة ومعاني القرآن للأخفش والفراء أصلاً مهماً في توجيه معاني آيات القرآن ودلالاته حتى عُدُّ اتجاههم هذا أحد أهم اتجاهات التفسير للقرآن الكريم فكانت هذه الكتب مصدراً كبيراً استعان به من جاء بعدهم من علماء التفسير والحديث منهم الطبري والبخاري وأبو عبيد وأكثر أصحاب التفاسير الذين جاءوا من بعد هؤلاء وخاصة ممّن تعاطى اللغة والنحو والبيان في تفسيره .

ملخص البحث

سلك أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء منهجاً نحوياً انحرف فيه كثيراً عن سلوك الأخفش وغيره من علماء النحو واللغة عندما اتخذ من المنهج الذي وضعه أستاذه الكسائي وسار عليه هو ثم طوّره بما يراه اتفاقاً مع الواقع اللغوي الذي يعيشه المجتمع العربي وذلك أن النحو الكوفي وَلِد على أساس التيسير للناس في حفظ قواعدهم وتوسيعها وعدم الانغلاق على القواعد النحوية التي بُنيت على لغة مجموعة من القبائل البدوية القاطنة

في قلب الجزيرة العرب ، وإنّما توسّعوا في أخذ اللغة من القبائل الأخرى التي أبى البصريون الأخذ منها أو التعامل معها ، فكان مسلك الفراء مسلكاً اعتمد هذا الأصل المهم في تقعيده للنحو الكوفي ولم يكن فيه كثير من ضير وذلك أنّ اللغة كائن له القابلية في العيش والتعامل مع المجتمع فهي متطوّرة بتطوره .

الهوامش:

١- الدرس النحوي في بغداد / د . مهدي المخزومي : ١١٢ ، ظ : المدارس النحوية / د . شوقي ضيف : ٩٥

٢- نشأة النحو / الطنطاوي : ١٤٩

٣- ظ : م . ن : ١٤٩ – ١٥٠

٤- م . ن : ١٦٩

٥- ظ : م . ن : ١٣٤ – ١٣٥

٦- ظ : بغية الوعاة / السيوطي : ٢ / ٣٣٣

٧- سورة البقرة / الآية ٣١

٨- معاني القرآن / الفراء : ١ / ٢٦

٩- الخصائص / ابن جني : ١ / ٤٢

١٠- ظ : م . ن

١١- سورة البقرة / الآية ٣٥

١٢- معاني القرآن / الفراء : ١ / ٢٦ – ٢٧

١٣- سورة البقرة / الآية ٢

١٤- م . ن : ١ / ١١ – ١٢

١٥- سورة الأعراف / الآية ١٦٤

١٦- م . ن : ١ / ٣٩

١٧- سورة النساء / الآية ١٢٦

١٨- معاني القرآن / الفراء : ١ / ٢٩٠

١٩- سورة البقرة / الآية ٥٠

٢٠- معاني القرآن / الفراء : ١ / ٣٥

٢١- سورة البقرة / الآية ١٨٤

٢٢- معاني القرآن / الفراء : ١ / ١١٢

[٢٣]- سورة هود / الآية ١١٧

[٢٤]- م . ن : ١ / ٣٥٥

[٢٥]- ظ : م . ن :

[٢٦]- سورة النساء / الآية ١٥

[٢٧]- سورة مريم / الآية ٢٧

[٢٨]- سورة مريم / الآية ٨٩

[٢٩]- معاني القرآن / الفراء : ١ / ٢٥٨

[٣٠]- سورة النساء / الآية ٣٤

[٣١]- سورة النساء / الآية ٣٤

[٣٢]- معاني القرآن / الفراء : ١ / ٢٦٥

[٣٣]- جمع الدكتور ناصر حسين علي أستاذ النحو والصرف في جامعة دمشق شواهد القراء في معاني القرآن بكتاب (شرح أبيات معاني القرآن للقراء ومواضع الاحتجاج بها) ودرس كل شاهد فيها مبّيناً قائله وموضع الشاهد فيه ومتمماً ما جاء منها مشطوراً ، وبيّن ما استعصى عليه لفهم بعض ألفاظها وكلماتها .

[٣٤]- الخصائص / ابن جني : ١ / ٣٨٨

[٣٥]- م . ن .

[٣٦]- ظ : نشأة النحو / الطنطاوي : ١٣٦

[٣٧]- نهج البلاغة / ٨٦ (الخطبة ٢٩) .

[٣٨]- كتاب الأغاني / أبو الفرج الأصفهاني : ١٥ / ٩٣، ظ : شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد المعتزلي : ٢٠ / ٤٩٧ ، العمدة / ابن رشيق القيرواني : ١/٤١- ٤٢ ، مع اختلاف يسير في الرواية.

[٣٩]- ظ : نشأة النحو / الطنطاوي : ١٣٦

[٤٠]- المزهر / السيوطي : ٢ / ٤٠٧

المصادر:

- الأغاني – لأبي الفرج الأصفهاني – عز الدين للطباعة والنشر – بيروت – لبنان
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة- للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة عيسى الحلبي وشركاه – الطبعة الأولى – ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.
- الخصائص -ـ صنعة أبي الفتح عثمان بن جني - تحقيق محمد علي النجار - وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة بغداد - ١٩٩٠ .
- الدرس النحوي في بغداد – د. مهدي المخزومي – دار الرائد .
- شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد المعتزلي – دار الفكر للجميع – بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة – ١٣٨٨ هـ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – ابن رشيق القيرواني – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت – لبنان – الطبعة الرابعة – ١٩٧٢ م
- المدارس النحوية – شوقي ضيف – دار المعارف بمصر – ١٩٦٨ م .
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها/ العلاّمة السيوطي – شرح وتعليق محمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي – صيدا – بيروت – المكتبة العصرية – ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء(ت٢٠٧هـ)، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، دار السرور، (د.ت).
- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة – الشيخ محمد الطنطاوي – دار المعارف القاهرة – الطبعة الثالثة .
- نهج البلاغة، المختار من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب " عليه السلام " ، تحقيق السيد هاشم الميلاني، العتبة العلوية المقدسة، النجف، العراق، ط٤، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.